



قبيلة بني مسارة وثورة بوحمارة

د. محمد العمراني

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس. المغرب

mohamedelamrani73@yahoo.fr

الملخص:

يتناول هذا المقال إسهام قبيلة بني مسارة الجبلية بشمال المغرب في وضع حد لثورة الجيلالي الزرهوني المعروف بلقب «بوحمارة» سنة 1909، وهي الثورة التي دامت سبع سنوات كاملة (1902-1909)، أنهكت الجيش المغربي وكبدت خزينة الدولة خسائر مالية كبيرة. وبالرغم من هذا الحدث العسكري الحاسم، فإن قبيلة بني مسارة لم تلق العناية اللازمة من قبل المؤرخين والباحثين عموماً، بحيث لم ينصفوها ولم يدونوا أخبارها كقبيلةٍ مُقاومةٍ للمتمردين. ووعياً بهذا المجهود العسكري المعتبر الذي قدّمته القبيلة المسارية دفاعاً عن الوطن، ووفاء لأرواح المساريين الذين قاوموا المتمرّد بوحمارة ووضعوا حداً لثورته، يُسعدنا أن نسهم بهذا المقال تذكيراً للأجيال الجديدة من أبناء منطقة جبالة عموماً بتضحيات أسلافهم الأبطال في الدفاع عن حوزة البلاد ضد كل الحركات الهدامة والدعاوي الزائفة التي استهدفت أمنها واستقرارها. وقد اعتمدنا في إنجاز هذا المقال على جملة من المصادر والمراجع والوثائق المتصلة بالفترة الدروسة، فضلاً عن الرواية الشفهية التي أفادتنا كثيراً في استجلاء كثير من المعطيات التاريخية، وتصحيح بعض الوقائع والأحداث التي واكبت عملية القبض على الثائر بوحمارة بالقبيلة المذكورة.

الكلمات الدالة:

بني مسارة، بوحمارة، الثائر، الجيش المخزني، الناجم

.Abstract:

Beni Messara and the Rebellion of Buhmara This article attempts to highlight the contribution of the mountainous tribe of Beni Messara, situated in northern Morocco, to put an end to the 1906-1909 rebellion of al-Jillai Zerhouni known as 'Buhmara'. This rebellion, which lasted for seven years (1902-1909), exhausted the Moroccan army and inflicted heavy financial losses on the State treasury. Despite this historic military event, the Beni Messara tribe has been less studied by historians and researchers in general. So, being aware of this remarkable military effort by the Beni Messara tribe in defense of the unity of Morocco as well as paying homage to the lives of the Messari fighters, I am going to remind the current generation of Beni Messara of the huge sacrifices and heroic struggles of their ancestors against all subversive movements and false claims that targeted Morocco's security and stability. In fact, in this article, I have relied on a number of sources and documents related to the period under study, as well as the oral narrative that has helped me clarify many of the historical facts and correct some of the facts and events that accompanied the arrest of the rebel 'Buhmara' in the aforementioned tribe.

Key words:

Bani Masara tribe, The revolution of the Zirhouni, Moroccan Army



غالباً ما تُوصَف قبيلة بني مسارة⁽¹⁾ في المصادر التاريخية، والمُراسلات المَخزنِيّة، والتقارير والأبحاث الاستعلامية الفرنسية، بالقبيلة المُرْعَبَة، والعنيفة، والخطيرة، والزائغة، والمُنحرفة عن الجادة، والمُعْتدِيَة على جيرانها، وغيرها من الأوصاف المُمائلة التي عُرفت بها هذه القبيلة خلال مرحلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومع ذلك فإنها أوصاف لم تفت في عضد تاريخها البطولي المُشرق الذي خلده أبنائها بكفاحهم المستميت ضد الغزاة في ملاحم بطولية مشهودة بعد هذه المرحلة، إذ بالرغم من أياديها البيضاء في مدافعة الأخطار المحدقة بالبلاد فإن المؤرخين والباحثين قلما ذكروها ودوّنوا أخبارها وأنصفوها، باعتبارها القبيلة الجبلية التي أسهمت إسهاماً حاسماً في إخماد ثورة الجيلالي بوحمارة التي طال أمدها بالمغرب سبعة أعوام، وإيقاف نزيف الفوضى العامة الذي رافق هذه الثورة طيلة المدة المذكورة. بناء على هذه الحقيقة، ووعياً بهذه المزية التاريخية المعتبرة التي قدّمتها القبيلة المَسارية دفاعاً عن الوطن بكل فخر واعتزاز، ووفاء لأرواح المسّارين الذين قاوموا «الفتان» بوحمارة ووضعوا حداً لفتنته، يُسعدنا أن نسهم بهذه الدراسة عن «قبيلة بني مسارة وثورة بوحمارة» تذكيراً للأجيال الجديدة من أبناء منطقة جباله عمومًا بتضحيات أسلافهم الأشاوس في الذود عن حوزة البلاد ضد كل الحركات الهُدّامة والدعاوي الزائفة التي استهدفت أمنها واستقرارها.

قبيلة بني مسارة تُلبّي استنفار السلطان وتتجاهل استنجد بوحمارة

غداة إعلان الجيلالي بن عبد السلام اليوسفي الزرهوني المكنى بـ«بوحمارة» و«الروگي» و«الفتان» ثورته ضد السلطان مولاي عبد العزيز بأحواز تازة في خريف سنة 1320هـ/1902م⁽²⁾، أصدر السلطان أمره لابن عمه القائد مولاي عبد السلام الأمراني العلوي الذي كان نازلاً بمحلة مخزنية على قبيلة بني مسارة بالتحويل إلى وطا بوعبان بقبيلة الحياينة لمؤازرة جيش الأمير مولاي عبد الرحمن بن الحسن المدعو مولاي الكبير⁽³⁾، وعيّنه قائداً عاماً للجيش السلطاني كله، وفوض له الأمر في كل شيء يتعلق بحرب الثائر ومطاردته⁽⁴⁾. وفي طريقه للانضمام إلى جيش مولاي الكبير أخذ القائد مولاي عبد السلام الأمراني جماعة من أعيان بني مسارة رهائن لديه، وأعطاهم الأمان حتى لا تحارب القبيلة مع بوحمارة وهو لا زال بقبيلة غياثة، وساق أولئك الأعيان الرهائن إلى غياثة لقتال الروگي⁽⁵⁾، ووجّه السلطان في الوقت نفسه رسالة إلى بني مسارة بتاريخ 13 رمضان عام 1320هـ/14 دجنبر 1902م يدعوهم فيها إلى الوقوف في وجه «الفتان» المذكور والمساعدة على استئصال فتنته، هذا نصها: «خدامنا



الأرضين كافة قبيلة بني مسارة أخص منهم عمالهم وأعيانهم وكبراءهم وأهل الحل والعقد، حفظكم الله ورعاكم، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد، فقد علمتم ما تظاهر به الفتان، الذي استعان بغياثة على ما سؤله الشيطان، وصار يسعى في تسويد صحائف رعبتنا السعيدة، ويتسبب في حل نظام القبائل بأوامر غير مفيدة، وآثر بذلك مخالفة السنة والجماعة، والخروج عن الإيمان والطاعة. قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدٌ شَبِيرٌ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَةِ الْإِمَامِ ثُمَّ مَاتَ، فَقَدْ مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً)⁽⁶⁾. وبسبب تلبيساته وتدليسه استهوى ذوي العقول الخفاف، وصار يورطهم في مواقع العقوق والخلاف، ويغريهم على الانحلال والانحراف، ولولا لطف الله لعم الهلاك والعقوبة للجميع، واستوى في المؤاخذه به العاصي والمطيع، ولكن رددنا وجهتنا السعيدة لتلك النواحي بسببه، وعزمنا على الاستيلاء عليهم جميعاً بما لا قبل لهم به حتى يصيروا عبرة لمن اعتبر، ولا يبقى لهم بين الرعية أثر، لكن تأنيينا في أمورهم وتمهلنا حتى يميز الخبيث من الطيب، وعلمنا أن جل أهل الدين والعقل لم يرضوا بهذا الحديث، فاقتضى نظرنا الشريف أن نكتب لسائر الصالحين والقبائل في شأن تحصيل الفاسد المذكور، ليتحقق لنا من يبادر إلى هذه المزية بعمل مشكور، وعليه فنأمركم أن تجعلوا أمره من الأمر المهم الأكيد، وتنصبوا له الأرصاء بجهاتكم وعدم إفلاته، وتعملوا جهدكم أن يجعل الله مزية التمكين منه على أيديكم، وتستوجبوا بها من الجزاء والثواب ما ينجيكم بحول الله ويرضيكم، وها نحن من وراء ما نسمع عنكم في شأنه بحول الله، أعانكم الله وألهمكم برشده، والسلام عليكم. 13 رمضان عام 1320هـ⁽⁷⁾.

لكن الوضع تطور نحو الأسوأ في الأيام القليلة التي تلت الرسالة السلطانية المذكورة، ذلك أن القائد مولاي عبد السلام الأمري، الذي «لم يكن مسعار حرب، ولا فارس طعن وضرب»، قرر الهجوم على الثائر بوحماره الذي كان حزم أمره ونظم أنصاره، فبدأ القتال يوم السبت 19 رمضان 1320هـ/20 دجنبر 1902م قرب وادي اللب بقبيلة الحياينة، وأسفر يوم الاثنين بعده 21 رمضان/22 دجنبر عن هزيمة القوات المخزنية هزيمة شنيعة، واستيلاء الثائر على جميع ما عندها من الأسلحة والمدافع والذخيرة والأخبية والمؤن والأموال، وفرار الناجين من القتل إلى فاس ودخلهم إليها حفاة عراة صباح يوم الأربعاء 23 رمضان/24 دجنبر⁽⁸⁾.

وقد وقع خبر الهزيمة موقع الصاعقة على السلطان مولاي عبد العزيز، الذي اضطر إلى تأخير سفره إلى مراكش بعد أن كان على أهبة مغادرة فاس، وشرع أهل فاس يلغطون وقد أصابهم الرعب من احتمال



حصار مدينتهم من قبل الثائر الذي أصبح على بعد أميال منها، وأخذوا يخزنون الأغذية ويحكمون إغلاق حوانيتهم تحسباً للحصار القريب⁽⁹⁾. كما انزعجت الدول الأوروبية المهتمة بالمغرب بهذه الهزيمة، وقامت بإجراءات عسكرية سريعة لحماية أرواح مواطنيها وممتلكاتهم⁽¹⁰⁾. وأمام هذه الضربة الموجعة التي تلقاها الجيش العزيزي، أخذ السلطان يعد العدة للثأر من عدوه بوحمارة، فنظَّم صفوف جيشه من جديد لمنع تقدم قوات الثائر نحو فاس، ووجَّه رسائل بالتعبئة إلى جميع قواد المملكة ورسائل أخرى إلى عمال المدن وولاة الأقاليم يأمرهم فيها بتجنيد العسكر وتدريبهم وتسليحهم للدفاع عن مدنهم⁽¹¹⁾، وانتدب وزير الحرب المهدي المنبهي للقيام بمهمة القضاء على الثائر بوحمارة، فزحف المنبهي بجيشه الجرار المعزز بعدد من القواد أمثال عيسى بن عمر، والمدني الكلاوي، وأخوه التهامي، ويرعى السباعي، وعمر اليوسي، وإدريس بن يعيش، والناجم الخصاصي⁽¹²⁾، وهاجم في فجر يوم الخميس 29 شوال 1320هـ/29 يناير 1903م منازل الثائر بثلاثاء النخيلة على ضفة وادي أيناون «مهاجمة صادقة، فلم تكن إلا لحظة حتى انهزموا (الثوار) هزيمة منكرة... فهرب الثائر مجفلاً»⁽¹³⁾ مجروحاً نحو عين مديونة بجبال صنهاجة بعد أن «ترك موتى أحزابه صرعى فريسة للذئاب والغربان»⁽¹⁴⁾، واقتفت الجيوش المخزنية أثره هناك «فمزقت جموعه الباغية كل ممزق...، وأوقعت بهم، وأذاقتهم أليم النكال والنكاد»⁽¹⁵⁾، واستردت عدداً من الأسلحة والذخائر التي غنمها الثائر في نصره السابق⁽¹⁶⁾، وافتكت بعض الأسرى من قبضته⁽¹⁷⁾.

ثم حشد الوزير المنبهي جنوداً جرارة تنتظم من القبائل المغربية؛ من أقصى بلاد السوس وتافيلالت إلى حاضرة فاس، وتوجه بها يوم 18 صفر 1321هـ/16 مايو 1903م لمدينة تازة، التي اتخذها الثائر محل كرسي إمارته، وخُطِب به على منابرها باسم السلطان مولاي محمد بن الحسن⁽¹⁸⁾، فتمكن بعد حوالي شهرين من القتال من دخولها عنوة يوم الثلاثاء 11 ربيع الثاني عام 1321هـ/7 يوليو 1903م بمساعدة الشيخ أبي هاشم المدني الوريكني السملالي الحسني المعتمد عند قبائلها، النافذ الكلمة فيها، فعاث الجنود فساداً في أهلها الأبرياء من مسلمين ويهود⁽¹⁹⁾، حيث فعلوا بهم الأفعال التي تخجل منها المروءة ولا ترضاه الإنسانية⁽²⁰⁾.

وبعد استرداد الجيش المخزني مدينة تازة في التاريخ المذكور أدرك الثائر بوحمارة بدهائه العسكري أنه لن يقوى على مواجهة هذا الجيش كثير العدد والعُدَّة، فحوَّل حينئذ وجهته شطر شمال المغرب



الشرقي، وكان غرضه من ذلك هو ضمان الحصول على منفذ بحري لثورته يتيح له الاتصال بالخارج، والتزود بالأسلحة والذخائر الحربية، وأن يمتد نفوذه إلى حدود الجزائر التي وعده شيوخ طرقها الصوفية بمده بالمال والرجال والسلاح، فبدأ يوجه رسائل إلى قواد تلك الأقاليم ورؤسائها ووجهائها يستثيرهم ضد المخزن ويحثهم على الدخول في دعوته، فاستجاب له عدد منهم، وامتدت ثورته إلى أنغاد والظهرة وقلعية والريف وجباله، وطرقت أبواب وجدة وطنجة وتطوان، وتعززت جموعه بأربعة من المغامرين الكبار، سيقدمون له خدمات عسكرية مهمة، وهم: الشيخ بوعمامة بن العربي البوشيخي، وعبد الملك بن محيي الدين حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، وهما عميلان فرنسيان، وعبد القادر العتيقي اليزناسني المكنى بأبي حصيرة، ثم أحمد الريسوني⁽²¹⁾، الذي كان ثائراً بمنطقة الهبط، فولاه بومحارة قبائل جبالة⁽²²⁾، فضلاً عن غابرييل ديلبريل، الجاسوس الفرنسي الخطير، رئيس أركان حرب بومحارة ومدير علاقاته العمومية⁽²³⁾.

وهكذا قصد الثائر مدينة وجدة فدخلها بدون قتال عشية يوم الخميس 29 ربيع الأول 1321هـ/25 يونيو 1903م، وخرج زوال الغد لأداء صلاة الجمعة في موكب سلطاني، فبوع بها وخطب به على منابرهما كالعادة باسم السلطان مولاي محمد المتقدم الذكر، وتظاهر بمظاهر المُلْك كاملة، غير أن مقامه بالمدينة لم يدم طويلاً، حيث غادرها يوم الجمعة 14 ربيع الثاني 1321هـ/10 يوليو 1903م بعد أن ترامت إليه الأنباء بسقوط مدينة تازة في يد المخزن، فعمرها الجيش السلطاني الذي جاءها من طنجة عن طريق الجزائر، فدخلها يوم الاثنين 16 جمادى الأولى 1321هـ/10 غشت 1903م، يتقدمه العامل أحمد ابن كروم الجبوري⁽²⁴⁾. وفي صيف 1322هـ/1904م عاد الروگي إلى عمالة وجدة معززاً باتباع بوعمامة البوشيخي، فزحف بجموعه إلى وجدة وحاصرها، واشتدت الحرب بين أنصاره وأنصار المخزن، وكانت سجلاً بينهما، بحيث دامت متواصلة بقية السنة إلى أن تراجع في أواخر شعبان 1323هـ/أواخر أكتوبر 1905م إلى قصبة سلوان قرب مليلية، فجعلها مقر حكومته ومركز حركته، بعد أن يثس من احتلال مدينة وجدة بسبب تخلي كثير من القبائل والأعيان عن دعمه ومساندته⁽²⁵⁾.

وباستقراره بقصبة سلوان افتضح أمره لدى عامة قبائل الريف وخاصتهم، وتبينوا على حقيقته، بعد أن شاعت أخبار اتصالاته بالفرنسيين والإسبان للحصول منهم على المال والسلاح لمواجهة المخزن مقابل



منحهم امتيازات واسعة، مثل بيعهم الأراضي الشاسعة، ومنحهم الاستغلالات المعدنية الكبيرة، والإذن لهم في فتح الطرق ومدّ السكك الحديدية ما بين المعادن وميناء مليلية⁽²⁶⁾. استؤنفت الحرب بين الفريقين بقبائل قلعية عبر نهر ملوية في أوائل ربيع الأول عام 1324هـ/أواخر أبريل 1906م، واستمرت حتى شهر جمادى الثانية/غشت من السنة نفسها، استمات خلالها الجيش المخزني في الدفاع استماتة مشهودة، فأدرك الثائر حينئذ أنه يستحيل عليه التغلب على قوات المخزن رغم ما كانت تعانيه من خصاصة وتكاثره من نَصَب وعناء، فانسحب إلى جبال كبدانة واعتصم بها خلال منتصف رجب 1324هـ/4 شتنبر 1906م، حيث «اكتفى كل فريق من ذلك الحين بمراقبة الفريق الآخر، وصار القتال بينهما رمزيا لا يعدو تبادل إطلاق الرصاص بين حين وآخر عبر النهر»⁽²⁷⁾.

وظل الأمر كذلك حتى سنة 1325هـ/1907م التي اندلع فيها النزاع بين الأخوين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ حول المُلك، فاغتنم الثائر هذا النزاع لإحكام سيطرته على جل القبائل الواقعة غرب نهر ملوية، ولاستمالة بعض قبائل جباله بالشمال الغربي للدخول في شيعته والانضمام إلى ثورته، بعدما انقسم الجيش المخزني بين موال لهذا الطرف أو موال للطرف الآخر، وتوالت عليه الهزائم والشدائد، حيث بعث في هذا الصدد رسالة إلى بني مسارة بتاريخ 9 ربيع الأول عام 1325هـ/22 أبريل 1907م يستنهضهم فيها إلى نصرته ضد السلطان مولاي عبد العزيز، فيما يلي نصها: «إلى خدام الأعتاب الشريفة كافة قبيلة بني مسارة وفقكم الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله. وبعد، فقد طرق بسمعكم أن المسلمين قد بايعت للنصارى على يد كبير الرعية، وقد قمنا بإذن من الله ورسوله غيرة على الدين لجهاد الكفرة اللئام كما قال تعالى: (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)⁽²⁸⁾، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في ذلك، وعليه إن كنتم تحبون الله والرسول والجهاد في سبيل الله كما كانت عليه أسلافكم فلا ينبغي للقبائل أمثالكم أن يتغافلوا عن هذا كل التغافل وقد سمعتم بهذا الواقع، وعليه فنأمركم أن تقدموا إلى حضرتنا الشريفة بحركة الخيل النافعة والرومة الصحيحة، بالحزم والضبط والإتقان في ذلك حتى يترد أهل الكفرة ويرجعوا إلى الجادة، أصلحكم الله. 22 أبريل عام 1325هـ»⁽²⁹⁾.

غير أن بني مسارة، الذين كانوا على دراية تامة بالوضع السياسي المتأزم بين الأخوين المذكورين، وبمستجدات حروبه مع الجيش المخزني، تجاهلوا نداءه واستغاثته، درءاً للوقوع في شراكه ومصيده. كما أن تواطؤ الثائر مع الإسبان والفرنسيين وتطبيقه سياسة جبائية مجحفة، دفع القبائل الريفية



بالخصوص إلى النفور منه والدعوة إلى محاربته وتعقب أنصاره⁽³⁰⁾. فقد حاربته قبائل قلعية بزعامة الشريف سيدي محمد أمزيان⁽³¹⁾، وحاربته قبيلة بني ورياغل بزعامة «رجل القبيلة وصنديدها» عبد الكريم الخطابي (الأب) الذي «استطاع... أن يؤلف بين جميع رجال القبيلة بالرغم عما كانوا عليه من خلاف وفوضى، ويجعل منهم صفًا واحدًا، وقوة قادرة على دفع الخطر الذي داهمهم مع زحف بوحمارة...» (فقد) دبر خطة حربية ناجحة (للإيقلاع بالثائر)، وهي أنه فتح الطريق في وجه الثائر إلى أن توغل بجميع قواته في أرض بني ورياغل، فتكبد فيها شر هزيمة في معركة تسمى بمعركة بوسلامة، ثم فر بنفسه تاركاً وراءه جميع الذخائر والأسلحة والمؤن⁽³²⁾.

وما كادت قبائل قلعية وغيرها من القبائل الريفية تتغلب عليه وتطرده من منطقة الريف ويتخلى عنه أكثر أعوانه، حتى أشار عليه أصدقاؤه الإسبان والفرنسيون أن يسير إلى ناحية فاس ليسهل على إسبانيا توسيع منطقة نفوذها بالاستيلاء على القبائل المجاورة لملييلية غرب نهر ملوية بمقتضى أوافق سرية وعلانية معقودة بينها وبين فرنسا، وليسهل على فرنسا توسيع رقعة احتلالها بناحية وجدة شرقاً وناحية الشاوية غرباً أثناء انشغال السلطان مولاي عبد الحفيظ بقتال الثائر الذي سيزاحمه في داخلية البلاد ويهدده في عقر داره بفاس عاصمة ملكه، فامتثل بوحمارة إشارة أصدقائه المذكورين وسار في ذي القعدة 1326هـ/دجنبر 1908م إلى تازة في خمسين فارساً هم كل من بقي معه، فنزل أولاً بوادي زا من إقليم تاوريرت، ثم بقصبة امسون من إقليم گرسيف ثم بقبيلة مكناسة شمال مدينة تازة، وكتب منها إلى أشياعه بالبرانس والتسول وغياثة وأولاد بكار وغيرهم يدعوهم إلى مناصرتهم لدخول فاس قصد إقصاء «أخيه» المزعوم مولاي عبد الحفيظ وتوطيد أركان ملكه بها، فاضطربت نيران الفتنة في تلك الجبال وبين تلك القبائل من جديد⁽³³⁾.

تقدم الثائر بوحمارة بأنصاره حتى وصل إلى وسط الحياينة، وحاذى وادي أيناون ونهر سبو وأشرف على فاس، وكتب إلى السلطان مولاي عبد الحفيظ يقترح عليه أن يقتسم وإياه المملكة بالسوية، فجند له السلطان قوات طرية ناوشتة الحرب وناشبتة القتال طيلة النصف الأول من سنة 1327هـ/1909م، تضم قواداً جددًا أشداء يُذكرون في مقاتلة بوحمارة لأول مرة أمثال محبوب بن قاسم القائد العام للجيش، وسعيد بن البغدادي، ومبارك بوخبزة، وقواداً قدامى سبق لهم محاربته كالقائد الناجم الأخصاصي، والقائد صالح الزمراني، والقائد العربي السريغيني⁽³⁴⁾. وقد جرت بين الفريقين عدة معارك من أشهرها معركة في بلاد بني ورياغل قرب وادي ورغة في 12 رجب 1327هـ/30 يوليوز 1909م، حيث



«وقعت ملحمة عظيمة استمات فيها الفريقان، فظهروا عليه، وانتهبوا ما معه، واعتقلوا كثيراً من أصحابه، فكانت حادثة عظيمة على أبي حمارة...، وقد استمرت الحرب إلى الليل، فاستدار الجيش بالثائر الثابت في موقفه...، وفي وسط الليل انسَل من الحصار»⁽³⁵⁾. ثم تبعه الجيش إلى وادي أُوْضِيرُ فدارت هناك معركة أخرى بين الجانبين، اضطر على إثرها اللجوء إلى قبيلة بني زروال، التي حلَّ بها ضعفاً على أهلها، لكنه اعتقل منهم أناساً، فثاروا عليه بالبارود، فخرج فاراً من بينهم⁽³⁶⁾، متوجهاً إلى قبيلة بني مسارة، فنزل بأربعاء بوقرة بزاوية الولي الصالح مولاي عمران الشريف الحسني الإدريسي، ومنها «صار من جديد يرسل إلى القبائل يستنهضها ثانياً لمناصرته، ولمدافعة الجيوش التي تستتبع ديارهم (حسب ادعائه) إن تَلَكُّنُوا عن نصرته وعن الدفاع عنه»⁽³⁷⁾. غير أن مكوثه بالزاوية العمرانية «دار الوقار» لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما وضع رجال القبيلة المسارية والجيوش المخزنية حداً لثورته بالقبض عليه بحرم الزاوية المذكورة في يوم الأحد 5 شعبان عام 1327هـ/22 غشت 1909م حسبما يُبين ذلك وشيكاً في الفقرات اللاحقة.

قبيلة بني مسارة تُوقف زحف بوحمارة وتُنهي ثورته

تتفق معظم المصادر والمراجع التاريخية التي أرخت لثورة بوحمارة على سقوط الثائر بيد الجيش المخزني داخل حرم الزاوية العمرانية بقبيلة بني مسارة في التاريخ المذكور، ولا تختلف الروايات الشفهية كثيراً عما أوردته المصادر المكتوبة في شأن مجريات الوقائع والأحداث العسكرية التي أدت إلى الإيقاع به في ذلك الحَرَم، ولكنها تضيف معطيات جديدة مهمة عن طبيعة علاقته بالمساريين عموماً وبالأشراف العمرانيين ولاة الحرم العمراني خصوصاً، وعن الجهة التي ألقت عليه القبض بالحرم المذكور. فهل دخلت القبيلة المسارية في طاعته واتفقت على نصرته؟ أم حاربتهم وأسهمت في إخماد فتنته؟ أم التزمت الحياد إزاء دعوته؟

تدل كل القرائن التاريخية على أن المساريين لم يذعنوا لطاعة الثائر بوحمارة ولم يناصروه البتة، وإنما حاربوه وغنموا منه غنائم لها بال⁽³⁸⁾، وظلوا متمسكين بولائهم للسلطان مولاي عبد الحفيظ. ولم يكن حياد الأشراف العمرانيين إزاء الثائر في البداية سوى التزامٌ مبدئيٌّ بحق الحماية واللجوء الذي يوفره حرم جدهم الولي الصالح مولاي عمران الشريف للمذعورين والمضطرين، وهو الحق الذي وضعهم في موقف حرج أمام الثائر وأمام المخزن على حد سواء. تذكر الرواية الشفهية التي نقلها صاحب «الإشارة



والبشارة» عن الفقيه المقرئ المُسن محمد بن الطيب الحيوني الخمسي مولداً المساري إقامةً، الذي عاصر هذه الفترة عن قرب، وعاش أحداثها عن وعي كامل، أن الثائر بوحمارة وصل إلى بني مسَّارة وأقام بمدر الزاوية، حيث يوجد ضريح الولي الصالح المذكور، وكان يحضر الصلاة في الأوقات الخمس وصلاة الجمعة بمسجد الزاوية، ويقرأ الحزب به مساءً وصباحاً. واعترض في إحدى الجُمُوع على إمام المسجد الفقيه العدل المُسن محمد أبياض العمراني المسَّاري (ت. 1392هـ/ 1972م) في دعاء الخطبة الأخير، لأنه دعا مع السلطان مولاي عبد الحفيظ، ولم ينج الفقيه من عقوبة بوحمارة إلا بحيلة، عندما وعده بالدعاء له في الجُمُوع اللاحقة، ومدحه بهذه الأبيات قائلاً:

عشرين لدين الهدى الغياث الحامي	ألستَ تبين مِن بعد الثلاثة مع
مَن ذِكره في الورى سيكون نام	يحمي الهدى ويغيث المستعين به
وفي تازة بادت نارُ بإضرام	بطود غياثة تبدو جلالته
على الحمارة ليثُ سَهْمُه رام	فقل لفرقة طغت قد أتى لكم
لأنه الحق المنصورُ بالسَّهام	شُلَّت يمين الذي يبدو مُحاربه

وبعدما سمع بوحمارة هذه الأبيات اطمأنت نفسه، وهدأ باله، وطلب من كاتبه الخاص أن يدونها، ورضي عن الفقيه الإمام وتجاوز عنه⁽³⁹⁾. وعن ظروف نزوله بالزاوية العمرانية واحتمائه بأشرافها، ومعاركه التي خاضها ضد القوات المخزنية، أخبرني المُسن السيد محمد استيتو بن علي المنصوري المناقشي المسَّاري⁽⁴⁰⁾ رحمه الله أن الثائر، بعدما تصدت له القبائل الجبلية الواقعة على وادي ورغة، تابع سيره نحو الشمال محاذياً نهر أوزور، ناوياً التوجه إلى مدينة طنجة، مصحوباً بجيش مزود بأسلحة وعدة معتبرة، لكنه اضطر، تحت وقع الهزائم التي لحقته، إلى الاتصال ببعض وجهاء الزاوية العمرانية طالباً منهم اللجوء إلى حرم جدهم مولاي عمران الشريف قصد التحصن به من ضربات القوات المخزنية التي كان يقودها القائد الناجم بن مبارك الأخصاصي السوسي، فاستجابوا لطلبه اعتباراً للامتياز الاجتماعي المتعارف عليه بضرورة ضمان مصارع الأولياء وحُرْم الزوايا اللجوء والحماية لكل شخص يخاف على نفسه من عقوبة أو انتقام.

وبهذا الامتياز الاجتماعي، لجأ بوحمارة إلى الزاوية المذكورة، ودخل مسجدها وصلى فيه، واجتمع بأعيان شرفائها لحثهم على مساندته، ومن جملتهم أحمد بن محمد العمراني، ومحمد بن الأشهب



العمراني ، وأخيه أحمد بن الأشهب العمراني وغيرهم. لكن يبدو أن هؤلاء الأشراف العمرانيين قد التزموا في أول الأمر الحياد في نزاع بومحارة مع المخزن ، ثم سرعان ما خرجوا عن حيادهم واتخذوا منه موقف المواجهة ، فخطبهم الثائر حينئذ بحسرة شديدة قائلاً: «أنا بومحارة ، ولستُ مُولايَ محمد ابن الحسن ، أعطيواهُ الدَّق (حاربه)! لو عَلِمْتُمْ ماذا ينتظركم لَبَكَيْتُمْ ذُكُوراً وإنائاً» -يقصد الغزو الفرنسي المرتقب للمغرب-. فرد عليه الأشراف: «لا يا مُولاي مُحَمَّد، الواذُ اللَّي دَاكُ مَا خَلَّانَا!»⁽⁴¹⁾. بمعنى «نحن معك ، فمصيرك هو مصيرنا».

ولم يكن رد هؤلاء الأشراف التزاماً بنصرته ، وإنما كان في حقيقة الأمر مجاملة يقتضيها الطرف الحرج الذي كان يعيشه الثائر المستحرم بالزاوية لا غير. ذلك أن المساريين عموماً والأشراف العمرانيين خصوصاً كانوا على علم تام بقوة الجيش المخزني وجهوزيته الكاملة للانقضاض على فريسته الجريحة بومحارة ، وكانوا يدركون يقيناً أن أي حلف عسكري مع الثائر لن يكون سوى صيحة في واد ونفخة في رماد ، لذلك ما أن اتفق بومحارة مع فرقتي بني يعمل وبني راوس المساريين للهجوم على المحلة المخزنية النازلة بمكان يقال له «السريحة» بقبيلة بني مزگالدة المجاورة حتى تراجعت الفرقتان المذكورتان عن اتفاقهما المذكور معه بعدما أيقنتا بعجزه لا محالة عن الصمود في وجه قوات القائد الناجم الأخصاصي ، ليقرر الثائر بعد ذلك النزول وحده بجيشه بموسم الولية الصالحة للا عاثشة بالقبيلة ذاتها ، إلا أن أحد الجواسيس ذهب خفية إلى المحلة المخزنية ، وأخبرها بعزم بومحارة على مهاجمتها على حين غرة ، فرحلت المحلة عن المكان المذكور ، ونزلت بموضع آخر من القبيلة عينها يسمى «الرتبة» قرب زغيرة ، وهناك التقى الجمعان ، واشتد القتال بين الطرفين. ولما عاين بومحارة انكسار قواته أمام قوات الجيش المخزني ، رفع الراية البيضاء ، وأمر فلول قواته بالانسحاب قافلاً إلى الزاوية العمرانية بعدما فقد أعداداً كثيرة منها ، ليحاصره بها المساريون حصاراً شديداً ، ويطوقوه داخلها تطويقاً مُحْكَمًا من كل الجهات ، إلى أن استسلم لهم ، وسلموه للقائد الناجم الأخصاصي السوسي⁽⁴²⁾.

أخبرني الراوي المُسن السيد محمد استيتو المنصوري رحمه الله أن القائد الناجم ، بعد انتصاره المذكور بقبيلة بني مزگالدة ، لاحق ما تبقى من جيش الثائر ، وألحق به رفقة مسلحي بني مسارة هزيمة فظيعة بمحيط ضريح مُولاي عمران الشريف ، وخوفاً على نفسه من القتل دخل الثائر الضريح واستحرم به ، فلجأت القوات المخزنية إلى إضرام النار في الضريح متجاوزة بذلك الأعراف الاجتماعية التي تحرم انتهاك حرمة أضرحة الأولياء ، وبعد أن كاد يختنق من شدة الدخان اضطر الثائر إلى الخروج لاستنشاق



الهواء، فقبض عليه مسلحو الزاوية العمرانية، وسلّموه مباشرة للقائد الناجم الأخصائي، وذلك في يوم الأحد 5 شعبان سنة 1327هـ/22 غشت 1909م⁽⁴³⁾. ثم ساقه القائد المذكور مكبلاً في الأصفاد إلى فاس حيث نُفِّذ فيه حكم الإعدام رميةً بالرصاص في يوم الخميس 23 شعبان 1327هـ/9 شتنبر 1909م⁽⁴⁴⁾. وبذلك كان لقبيلة بني مسارة الشرف الكبير في وقف زحف هذا الثائر ووضع حدٍّ لثورته بعد أن طاف بقبائل شرق المغرب وتَحارب معها وأنزل بها الهزائم، وهزم عدداً من قواد السلطانين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ⁽⁴⁵⁾.

ذكر صاحب «الإشارة والبشارة» أن الشخص الذي قبض عليه أولاً هو السيد أحمد بن الأشهب العمراني المتقدم الذكر. قال: «وحكى هذا السيد أنه بعد معارك مع الثائر ومحاصرته بالزاوية المذكورة سأله: أنت ابن مولاي الحسن؟ فأجاب الثائر: أنا ابن مولاي القرطاس!»⁽⁴⁶⁾. وأضاف الراوي ابن الأشهب قائلاً: إنه «بعد القبض عليه سلّم مباشرة إلى رؤساء الجيش الحفيظي الذي كان مقتفياً أثره للقضاء عليه، وأن القائد الذي تسلّمه هو القائد الناجم الأخصائي السوسي، وليس الخبر كالعيان»⁽⁴⁷⁾.

وقد أكدت وثائق مركز الأرشيف الدبلوماسي المحفوظة بمدينة نانط المعطيات المذكورة، حيث كتب أحد ضباط الاستعلامات الفرنسية تقريراً شاملاً عن قبيلة بني مسارة خلال سنة 1913م، أي بعد مرور أربع سنوات فقط على نهاية بوحمارة، تعرض فيه للكلام عن أولياء القبيلة، فاستهل حديثه عنهم بذكر الولي مولاي عمران الشريف، ونسبه، وألقابه، ومحل دفنه، وضريحه، ومسجد زاويته. فمما أورده عن ضريحه قوله: «وفي داخل قبة هذا الولي الصالح ظل الروگي بوحمارة مُحاصراً من قبل بني مسارة إلى حين وصول محلة مولاي حفيظ التي تسلّمته»⁽⁴⁸⁾. كما أكّد محمد ابن الأعرج السليمان، وهو مؤلف معاصر ومعين لهذه الأحداث، صحة ما ذكر حينما أورد في مؤلفه «اللسان العرب» أن الثائر بعدما أوقع به فرسان المحلة المخزنية وقبيلة شنعاء على نهر ورغة «هرب في بضعة من خواصه هائماً على وجهه إلى أن نزل قبيلة بني مستارة فقبضت عليه»⁽⁴⁹⁾.

وبدوره، أكّد لنا الراوي السيد محمد استيتو المنصوري رحمه الله أن رجال بني مسارة كان لهم قصب السبق في القبض على الثائر المذكور، وأبلوا في ذلك البلاء الحسن، وغنموا الكثير من أسلحته، وأنهم منذ ذلك الحين صارت لهم شوكة كبيرة بالمقارنة مع المرحلة السابقة، حيث قال لنا رحمه الله مقارناً بين المرحلتين: «قَبْلُ بوحمارة كانْ عُنْدنا عَ لَمْكَاحِلْ، وَبَعْدما انْهَزَمْ بوحمارة تَقْبَضُنَا عَلَي السِّلَاحْ



دَ فَرْنَسَا. السِّلَاحُ كَانَ يَتَّبَعُ فِي السُّوقِ بِـ50 رِيَالٍ لِلْكُلَاةِ⁽⁵⁰⁾. وقد سأله رحمه الله عن سبب حضوره بالزاوية العمرانية يوم القبض على الثائر في التاريخ المذكور، ولم يكن عمره يتجاوز وقتئذ الثمانية عشر عاماً، فببر ذلك برغبته الأكيدة في الظفر بغنيمة من الغنائم، كفرس أو قطعة سلاح أو هما معاً.

إنها معطيات تاريخية استقيناها من شاهد عيان على مجريات الأحداث الأخيرة من مراحل ثورة بوحمارة، وهي معطيات ظل مخبرنا الراوي السالف الذكر يرددها على مسامع ضيوفه وجلسائه طول حياته، فكان لا بد لنا من تدوينها ونشرها لأول مرة في هذه الدراسة خشية نسيانها وضياعها، وتعميماً للفائدة عن حدث تاريخي شهير كانت قبيلة بني مسارة مسرحاً له خلال صيف 1909م. ذلك الحدث الذي أفرد له بعض المؤلفين حيزاً مهماً في مؤلفاتهم. ترى ما الذي حملته تلك المؤلفات من معطيات عن هذه الواقعة التاريخية؟ ينبغي الإقرار أولاً بأن ما كتبه عبد الرحمان ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»، ومحمد غرنيط في «فواصل الجمال»، ومحمد ابن الأعرج السليمان في «اللسان العرب» عن حدث لجوء الثائر بوحمارة إلى قبيلة بني مسارة، أي المرحلة الأخيرة من ثورته، غير كاف على الإطلاق، ولا يفي بالغرض المأمول في الوقوف على جلية الأمر، بل حتى الذي أورده ابن منصور في مؤلفه «أعلام المغرب العربي» بخصوص هذا الحدث لا يعدو أن يكون سوى صياغة جديدة لما أثبتته المختار السوسي في كتابه الشهير «المعسول» نقلاً عن القائد الناجم المذكور. وهو الكتاب الذي نعتبره مصدراً متفرداً في تتبع وقائع ملاحقة بوحمارة ببني مسارة وتفصيل الانقضاء عليه واقتياده بعد ذلك أسيراً إلى فاس. فإلى أي حد وافقت رواية القائد الناجم روايات المساريين عن هذه الوقائع الحاسمة؟ ما هي الإضافات الجديدة التي انفردت بها رواية القائد الناجم عن بقية الروايات المحلية الأخرى؟

قبل التعرف على مضامين رواية القائد الناجم وتفصيلها، لا بد من التنبيه إلى مسألة أساسية ينبغي أخذها بعين الاعتبار، وهي أننا الآن بصدد رواية قائد مخزني مكلف بمهمة القضاء على ثورة مسلحة خطيرة اكتوت بنارها القوات المخزنية طيلة سبع سنوات، يبدو من فصول أخبارها عزم صاحبها القوي على بلوغ مهمته المذكورة مهما كلفه ذلك من تكاليف، لذلك، واعتباراً لجسامة هذه المهمة، نعتقد أن الراوي القائد الناجم تعمد في روايته نَسَب حدث القبض على بوحمارة لنفسه، وغَيَّب بالتالي دور بني مسارة الحاسم في إنجاز هذا الحدث، فغض الطرف عما بذلوه من تضحيات للانقضاء على «الفتان»، وأظهرهم غير ما مرة بمظهر الخائفين المذعورين من بطش القوات المخزنية، إبرازاً لقوته



وسطوته، ورفعاً لشأنه وهيبته، مثلما يبدو ذلك جلياً من كتاب «المعسول» الذي يحتفظ بنص رواية القائد المذكور.

وهكذا، نقرأ في هذا الكتاب أن الثائر بوحمارة، بعد انهزمه أمام القوات المخزنية وفراره مجروحاً إلى ضريح الولي الصالح مولاي عمران الشريف بقبيلة بني مسارة كما تقدم، أشاع في القبائل المجاورة أنه مات وانتهى أمره، بيد أن القائد الناجم لما سمع هذه الإشاعة لم يصدقها، لأن «بوحمارة مات خلال السنوات السبع التي قاتله فيها عشر مرات ثم حيي عشرين مرة!»⁽⁵¹⁾، فقرر أن يقف على الحقيقة بنفسه، وذهب في لَمّة من خيله وعُصبة من فرسانه يستقضي أخباره ويقتفي آثاره، وكتب إلى السلطان مولاي عبد الحفيظ يطلب منه أن يأمر الجيش بالسير وراءه والنزول قربه، وأن يعززه بنخبة منتقاة من الجنود وعدد من المدافع، فأجابته السلطان إلى طلبه وأرسل إليه المدد المطلوب مع قائد الجيش محبوب بن قاسم، فما زال الناجم يَجِدُ في البحث عن بوحمارة حتى علم أنه مختبئ في ضريح الولي الصالح المذكور. يروي القائد الناجم عن تفاصيل ما ذُكر قائلاً: «فاستدعيْتُ مَنْ كتب لي رسالة إلى السلطان ذكرتُ فيها الواقع، وأنني الآن وراء أبي حمارة ذاهبٌ، وطلبتُ منه أن يتبعني الجيش، وأن ينزل قريباً مني، وأن يُرسل إليّ ما أتوقّف عليه من المدفع وبعض جند آخر...، ثم سرنا قُدماً... نسأل عن أبي حمارة كل مَنْ نُصادفه، فقليل لنا إنه في بلاد بني قيس، فصدنا إلى تلك الناحية، فنزلنا في محل هناك يسمى الأربعاء، وقيل لنا إنه في مشهدٍ (ضريح) يسمى المدفون فيه مولاي عمران...، وصار يَجِدُ في الدعاية التي يعرف كيف يصوغها ولا ييأس...، فجاء إلينا أهل جباله خائفين على أنفسهم، فنقول لهم لا غرض لنا إلا أبو حمارة وحده، فلا يخافن أحد، ثم جاء الجيش الذي طلبته من السلطان حتى نزل قريباً منا، فطلع إليّ من كل طاوور حظّ وافر، وجاءتني المدافع، فبقيت هناك نحو أسبوع ونحن نستيقن أمر الرجل لنتحقق أين هو»⁽⁵²⁾.

ويستفاد من رواية الناجم أن بني مسارة لم يكونوا راضين عن مقام بوحمارة بين ظهرانيهم، فواجهوا قواته وغنموا منها غنائم مهمة، وأن بعض قواد الجيش المخزني كانوا لا يريدون أن يشاركهم أحد في ملاحظته والظفر بغنائمه، وتعسفوا أحياناً ضد بعض السكان من دون وجه حق، حيث يضيف الناجم مفصلاً الحديث في هذا الأمر قائلاً: «وإذ ذاك كان القائد عبد الرحمان أكرار الأگلاوي يسأل عمن غنم شيئاً من أبي حمارة له بال يلفت الأنظار، فذكر له أن رجلاً غنم بغلة عليها جارتان جميلتان بارعتان فاتنتان راعتان، فأرسل مَنْ انتزع الجاريتين من غانمهما، فأتى بهما على تلك البغلة نفسها، فجاءني



صاحب الجاريتين حتى وقف أمامي، فقال لي: هل أنت تكذب؟ فقلت له: حاشا، وفي أي شيء كذبت عليك؟ فقال: إنك ذكرت لنا أن مقصودكم هو أبو حمارة وحده، وأنا غنمتُ منه جاريتين فنزعتوهما مني، مع أن كل من غنم شيئاً فهو له، فكيف أظلم، وتنتزع مني غنيمتي؟ فقلت له: ومن الذي انتزعهما منك؟ فذكر أن رجلاً من المعسكر هو الذي انتزعهما منه بالقوة. فأرسلت من يبحث لي عن ذلك، فعاد إليَّ الرسول بما فعله عبد الرحمان أكرار صاحبنا الواشي، فأرسلت من انتزعهما منه بالقوة أيضاً مع البغلة، ولا أبالي بما عسى أن يكون، فأتاني أكرار هذا يقول: إنهما جاريتان جميلتان تصلحان للوزير الأكلوي، وأما هذا الجبلي فماذا يصنع بهما؟ فقلت: ألم يشبع الوزير الأكلوي من رائعات الجواري وعنده المئات منهن؟ فغضب مما فعلتُ وقلتُ، وأوعد أن يُوصل الخبر إلى وزيره، ولكنني ما باليت بأي واحد منهما في سبيل القيام بالواجب»⁽⁵³⁾.

ثم يطلعننا القائد الناجم على أجواء استعداد الجيش المخزني لمواجهة قوات بوحمارة، وعلى انضمام بعض المرتزقة والمغامرين إلى فلوله سعياً وراء المال والثروة، وعلى الهزيمة القاسية التي مُني بها ومرتزقته بقبيلة بني مزكّلة، التي أطلق الجيش فيها العنان لأفراده بالنيب والسلب، ورجوع الثائر هارباً إلى محل لجوئه بضريح مولاي عمران الشريف رفقة شردمة من أنصاره ليتحصن داخله من ملاحقة الجيش الحفيظي، فتتطابق في هذا السياق رواية الناجم مع رواية المسن السيد محمد استيتو المنصوري السالفة الذكر. يقول القائد الناجم عن تفاصيل الأحداث المذكورة: «ثم بلغني أن رجلاً يسمى ابن الخمسية، كان متبوعاً في قومه ولا يسألونه عن أي سبب إذا استفزهم لحرب، قد اتصل بأبي حمارة، فصار يتردد عليه طمعاً فيما يصله من مال منه، فعرفتُ أن الأمر جدُّ، وأنه يجب أن نبادر بالضربة الأخيرة، وعند ظهر يومٍ سمعتُ صراخ النَّفَّار والأبواق من الجهة التي فيها ملجأ أبي حمارة، فإذا بجيشه ينبعث من جديد أماناً متموجاً يزحف إلينا، فقلتُ لجنودنا ولكل من معنا: تهيئوا وانتظمو. وكان الوقت وقت الغداء في البوادي، فنصبنا المدافع والرشاشات لظننا أن الثائر سيهاجم جيشنا، وقد كانت مساحة بسيطٍ متسعٍ من وادٍ عميقٍ بيننا وبينه. قال: وقد كنتُ منفرداً مع جيشي الخاص عن الجيش الذي جاءنا به محبوب جواباً عن رسالتي التي كتبتها إلى السلطان، فوقفتُ أنظر، ثم علمتُ بعد ذلك أن الثائر قال لمن معه: إنني لا أقصد تلك الشردمة التي مع الناجم بل أذهب صامداً إلى الجيش الكبير. يُظهر بذلك لمن معه أنه على قمة أمره، وأنه لا يزال يملك مقادة الحرب. فتنكبنا وسار على طريق بني مزكّلة، فأقلعنا وحملنا ما معنا وسائرناه إلى الجهة التي يقصدها، فسرنا معه متوازيين حتى سقط علينا الليل، فبات في بني



مزگالدة وبتنا في بني زروال، فقمنا قبله وسبقناه إلى جيشنا...، فقام القائد أبو خيزة ومن معه...، فلاقوا الزحف، وكان اليوم يوم سبت، فلم يزدوا على أن تعاطوا الرصاص بينهم وبينه من غير أن يتلاحموا تلاحم الحروب، فلم يروا منه ولم ير منهم ما يجدي...، وفي اليوم الثاني تهيأ الجيش كله، ما معي وما مع الرئيس محبوب وما مع غيرنا من القواد، فتلاقينا مع الثائر في موقعة عظيمة انهزم فيها بعد استماتة انهزاماً شنيعاً، فنهبنا قبيلة بني مزگالدة وكل ما وجدناه أمامنا، فولى عن الثائر إذ ذاك كل من معه فتركوه منفرداً، فرجعنا نحن عن المنهزمين عند نزول الليل، فأب الثائر إلى محله في مشهد مولاي عمران ولم يتبعه أحد، لا منا ولا ممن كانوا معه، وقد تفرق عنه حتى أصحابه الأخصاء»⁽⁵⁴⁾.

ويقدم لنا القائد الناجم معطيات وافية عن المشاهد الأخيرة من ملاحقة الثائر بوحمارة بمحل استحرامه من قبيلة بني مسارة عقب هزيمته المتقدمة ببني مزگالدة، فيخبرنا عن رجل مساري قدّم له معلومات دقيقة عن وضعية بوحمارة، وحفرّه على المسارعة إليه لنيل شرف القبض عليه دون غيره، وهنا تتوافق روايته أيضاً إلى حد ما مع رواية مخبرنا الراوي المنصوري حينما أشار آنفاً إلى دور أحد الجواسيس في تنبيه المحلة المخزنية إلى عزم الثائر على تنظيم هجوم مفاجئ ضدها لتكون منه على بال. كما يصف الناجم بإسهاب مجريات ملاحقة بوحمارة ومداهمة مكان تحصنه ومشهد القبض عليه واعتقاله، من غير إشارة إلى مشاركة المساريين في حصاره، ولا إلى إسهامهم في إلقاء القبض عليه، حتى إنه قلل من شأنهم ورماهم بالخوف والذعر من سطوة الجيش المخزني كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. ذلك أن الفكرة الأساسية التي يبتغي القائد الناجم ترسيخها في أذهان الناس، وتأكيداها أمام الدوائر الرسمية، هي أن شرف القبض على «الفتان» يعود إليه لا إلى غيره، ويقدم لإثباتها أدلة وحججاً ساقها في روايته حسبما يظهر ذلك واضحاً من كلامه عن سياق الوقائع المذكورة حينما يقول:

«وفي أثناء الليل جاء رجل من جبالة يسأل عني، فذُلّ على خبائي، فقال: أريد أن أتلقى مع القائد الناجم. فأعلّمت به، فأمرتُ بإدخاله، فرأيتُ في ضوء السراج، فإذا هو صاحب الجاريتين اللتين انتزعتُهما من عبد الرحمن أكرار الأگلاوي، فقال: إنك قد أحسنتَ إليّ ذلك اليوم، وأسديتَ إليّ معروفاً، والإحسان يملك الإنسان، وقد جئتُ أجزيك إحساناً بإحسان، وأردتُ لك أن تحوز وحدك شرفاً لا يشارك فيه أحد من هؤلاء القواد، وإن ابن الخمسية الذي كان يناصر أبا حمارة قد ولّى عنه بعدما قُتل أصحابه، وجرح كثيرون من قبيلته، فلم يبق عند الرجل الآن إلا أهله قط، وليست معه أية



قوة تدافع عنه ، فبادر إليه الآن ليكون لك وحدك شرف إلقاء القبض عليه ، فإنك أهل لكل شرف ، فهيا إليه بسرعة قبل أن يفلت منك ، فإني تركته وليس معه من الخيل إلا خمس وسبعون فرساً تركها له فرسانها وقد هربوا عنه ، وقد أدخل سروجها البراقة المذهبة إلى مشهد مولاي عمران ، فقم وأسرع ، ولا تنس في حياتك أن إسداء المعروف لا ينسأه الرجال أهل جباله الأحرار. فقمْتُ في الحين فأيقظتُ أصحابي من القواد: القائد سعيد الدمناتي والقائد محمد بن سعيد القرقوري ، فذهبنا ثلاثتنا مع جنود انتقيناهم من بقية جنودنا الثلاثة ، فلم نختر إلا من نعلم منهم الرجولة والمغامرة والبسالة... ، فذهبنا من غير أن يعلم رئيس الجيش محبوب بأي شيء ، فتقدّمنا ذلك الرجل الجبلي يهدين الطريق ، فسبقْتُ أنا بالفرسان وتبعنا المشاة مع المدافع ومعهم القائد محمد بن سعيد ، فهاجمتُ أولاً الجهة التي فيها مشهد مولاي عمران ، فوجدتُ المكان كما وصفه لنا دليلنا ، فقد وجدتُ فيه الخيل مصطفة وحدها دون ركابها حول المشهد ، فلم نكد نقرب من المشهد عند طلوع الشمس حتى أطلقت علينا ثلاث طلقات من المشهد ، عرفنا بعد ذلك أن الذين أطلقوها هم ثلاثة عبيد صغار ، هم وحدهم من بقي لأبي حمارة ، فسقط أحد أفراسنا ، فتحرزنا وتنحنينا ، ثم خرجت عجز من المشهد تصرخ فينا وتقول: ما تريدون من بلادنا؟ فقلت لها: لا نريد إلا أبا حمارة وحده. فقالت: إنه قد خرج آنفاً وليس هنا. فتجاوزنا المشهد قليلاً ، فرأينا تساقط الرجال علينا من القرى التي تجاور تلك الناحية ، فتراكموا على مقربة منا مبتعدين ، يتصايحون بنا قائلين: نحن بالله وبالشريعة معكم يا أصحاب السلطان. وقد علاهم الخوف من الجيش ، فقلت لهم ، وقد رفعتُ عقب البندقية وأنا أسير إليهم ، وتلك علامة المسالة: أخرجوا إلينا منكم من نتكلم معهم ، وعليكم الأمان التام ، فإننا لا نطلب إلا طلبية⁽⁵⁵⁾ السلطان أبا حمارة الفئان. فقيل لنا: إنكم تركتموه وراءكم في المشهد ، فقد اختبأ فيه عنكم. فرجعنا فدهمنا المشهد ، ولما أردنا أن ندخل إليه من الباب أطلق علينا أولئك الغلمان النار فقتل واحد منا ، فإذا بأصحابي انتشلوني بأيديهم من أمام الباب وهم يقولون: كأنك لا تريد دائماً إلا أن تموت. فأبعدوني عنه ، فرغنا إلى ناحية أخرى فاقتحمنا المكان وأوقدنا حوله النار ، وقد كان غير مقبو كالعادة ، وإنما هو مسقف بأعواد فوق الجدران المرفوعة ، ثم على الأعواد تراب ، فشبَّت النار في السقف ، فلما اشتد الدخان على أبي حمارة اندلق من المحل ، فانقضضنا عليه ، فكنت أنا أوّل من لمست يده ، ومعني القائد العربي... ، ومعنا القائد البخاري من قواد جندي ، فنزعنا منه الخنجر أولاً من تحت إبطه ، والمسدس ، والتماثك المخيطة بخيوط الذهب الحقيقي ، وهي



الحفان اللذان يلبسهما الفارس...، ثم أخرجناه، فإذا بالجند قد دهموا علينا ينتهبون كل ما في بناية المشهد، وليس في المكان من الناس إلا نساؤه وجواربه وخدمه، والبناية متسعة تسع عشرات من الناس، وقد كان جيشنا وصلنا إذ ذاك قبضه وقضيضه، فكان كل من وصلنا يضع على الثائر يده ويقول: يا ناجم، هل أنا الذي قبضت أبي حمارة؟ فأقول له: نعم يا سيدي أنت الذي قبضته، أداري الناس بذلك لئلا يغلبوني عليه فيقتلونه، وقد ازدحم علينا الناس حتى صار مرفوعاً فوق الأكتاف، وأصحابي يدافعون عنه، فكاد يختنق، وقد أضر به العطش، فصار ينادي: يا ناجم، أغثني بشربة ماء، فقد كدت أموت عطشاً. فالتفتُ إلى القائد العربي... فأمرته أن يأتيه بالماء، فأتى بقلّة ماء لا بأس بها، فأعلاها يصب الماء في فيه، فمن الماء ما يصل فاه، ومنه ما يسيل على أكتاف الناس المتزاحمين، ثم أمرتُ جندياً معي أن يأتي ببغلة، فوقف معي القائد محمد بن الجيلاني، وقد بلغ مني الإعياء مبلغاً عظيماً، فأركبناه عليها، وأردفنا وراءه القائد البخاري...، فتمكن منه، وهو مأسور مربوط اليدين وراءه⁽⁵⁶⁾. وكان اعتقاله يوم الأحد 5 شعبان عام 1327هـ/22 غشت 1909م حسبما ألعنا إلى ذلك سابقاً.

ويواصل القائد الناجم إمدادنا بتفاصيل الأحداث التي أعقبت اعتقال بوممارّة بحرم الزاوية العمرانية، فيخبرنا أنه مباشرة بعد اعتقال الثائر وأسرته وتكبيله أمر القائد البخاري المذكور أن يسير به إلى فاس مبتعداً عن المعسكر حتى لا يقتله الجنود، ثم لحق بالأسير وحراسه وباتوا معه ليلة الاثنين في مراجعة الحديث، ينددون عليه بما كان يفعله بهم منذ سبع سنين، فكان الناجم هو الذي يحادثه كثيراً في ذلك. وفي الصباح التحقوا بالجيش، وقَدّم الناجم أسيره إلى القائد العام محبوب، وساروا بعد ذلك حتى بلغوا قبيلة سراغة فباتوا بها ليلة الثلاثاء، ثم ساروا صباح الثلاثاء إلى قبيلة لمطة⁽⁵⁷⁾.

وبهذه القبيلة استقبلهم مبعوثون أرسلهم السلطان إليهم ومعهم جملٌ عليه قفص خشبي، فبلغوا الناجم ومن معه أمر السلطان بجعل الأسير في القفص وإدخاله محمولاً على الجمل إلى فاس، فامتثلوا لأمر السلطان، وفعلوا بالأسير ما أمروا به، وسلموا زمام الجمل إلى القائد الناجم حتى يعلم الناس أنه مَن اعتقله. وعن ذلك يقول الناجم: «وفي اليوم الثاني أصبحنا في لمطة...، ثم قمنا متوجهين إلى فاس، فتلقنا جملٌ بُعث إلينا من عند السلطان وعليه قفصٌ، فقال لي الرسول: أيها القائد اسمع كلام السلطان، فإنه يأمرُك أن تجعل الأسير في هذا القفص ليدخل إلى فاس على تلك الحالة...، فأنزله البخاريون الغلاظ الأكباد، فسلسلوه وطوقوه بالأغلال، حتى لا يكاد يتحرك بثقل الحديد، ثم جعلوه في القفص، ثم ربطوا



القفص على الجمل، ثم توصلتُ أنا بزمَام البعير، وبذلك جاء الأمر من السلطان، ليعلن للناس أنني أنا الذي اعتقلته»⁽⁵⁸⁾.

ويصف القائد الناجم لحظة دخوله مدينة فاس صباح يوم الثلاثاء 7 شعبان سنة 1327هـ/24 غشت 1909م وسط جمهور كبير من المتفرجين، وإبراكه الجمل أمام السلطان مولاي عبد الحفيظ ووزرائه بمشور باب البوجات، فيقول: «فلما دخلنا المدينة صار أهل فاس يتلقوننا زرافات ووحداناً ليروا أبا حمارة، فلم تبق مخدرة فما دونها ذلك النهار إلا خرجت، وقد بلغ كراء البغال مائة ريال، وكان يوماً مشهوداً، فمشيت بالجمل حتى دخلت دار المخزن حيث المشور، فوجدت السلطان جالساً وحوله الوزراء، فأبركتُ الجمل بين يدي السلطان، ثم تقدمت فَبَدَقْتُ على العادة، وسلّمت إلى يده الأمانة كما توصلتُ بها من مولاي عمران، ثم وضعت أمامه ما كنتُ أخذتُه من الأسير: الخنجر والمسدس والتمايك (الخفين) وصرة فيها طوابيع التي كان يطبع بها رسائله، فتناول السلطان بيده صرة الطوابيع، وهي خنشة صغيرة من الملف، فأخرج منها الطابع الكبير وجعل يقرأ ما كتب فيه، ثم التفت إلى أبي حمارة بالكلام الشديد حين يزعم في ذلك الطابع أنه مولاي محمد بن مولاي الحسن، فصار يثرب عليه بشدة، فصار أبو حمارة يتكلم بغمغمة لا يفهم السلطان معناها...، ثم أمر أن ينزل أبو حمارة من قفصه الذي أغلق عليه، فأدخله البخاريون من باب إلى دويرة سجن فيها، ثم تفرقت المخزنية»⁽⁵⁹⁾. ويضيف الناجم أن بوحامارة بُنيت له بعد ذلك دكانة⁽⁶⁰⁾ مرتفعة وسط مشور باب البوجات، وصُنِعَ قفصٌ آخر أصغر من الأول وُضع فوقها، وجُعِلَ فيه بوحامارة، وفي كل عشية كان «يُخَرَّجُ إلى ذلك المحل، فثُقام عليه ألعاب الخيل كما هي العادة في الأفراح المخزنية، وتُضْرَبُ حول قفصه البنادير (الدفوف) بأيدي النساء الفاسيات»⁽⁶¹⁾.

ولم تمض سوى أسابيع على اعتقاله حتى أُعدم رمياً بالرصاص كما تقدم في يوم الخميس 23 شعبان 1327هـ/9 شتنبر 1909م بأمر من السلطان، ومن قَبِلَ الباشا إدريس منو، الذي كان مكلفاً بحراسته ومسايرته مكبلاً بعض النهار في حدائق القصر لقضاء حاجته، وذلك لقطع الطريق على محاولة قناصل الدول الأوروبية بفاس التقدم إلى السلطان بطلب تسريحه والعفو عنه. يقول القائد الناجم حاكياً عن هذه الحادثة: «ثم سمعتُ أن السيد إدريس منو كان يجالسه أحياناً في الدويرة التي سجن فيها، وفي ليلة بعد أسابيع من اعتقال هذا الثائر أَسْرَ القنصل الألماني إلى السيد إدريس منو، وقد كان صاحبه، أن



يُعلم السلطان بأن قناصل الدول سيأتون غداً إليه ليطلبوا منه تسريح أبي حمارة، فإذ ذاك حكم السلطان بقتل أبي حمارة في تلك الليلة، فذهب إدريس منو الذي كان يستأنس به ويُمنّيه بأنه سيُطلق سراحه، فخرج معه إلى بستان من بساتين دار المخزن، فصار يسايره على عادته معه في بعض الأوقات، وأوصى عبداً يسمى مباركاً السوسي أن يطلق فيه المسدس من ورائه حين يتحدثان، لكن العبد، وقد كان رعديداً، أصابه الدهش، ثم زاد على ذلك أن الطلقة لم تنطلق من المسدس، فالتفت أبو حمارة بسرعة حين سمع الحركة وراه فقال: هذا هو الغدر. ثم صار يتشهد، فعمد إدريس منو إلى المسدس فأطلق عليه منه رصاصات حتى مات، ثم قطع رأسه فأتى به إلى السلطان، ثم رجع به فأحرقه هو والجثة، وكان ذلك كله سراً لا يعرفه إلا الخواص...، ثم لما طلع القناصل في الغد وطلبوا تسريحه، اعتذر إليهم السلطان بأن الحكم الشرعي قد نُفذ فيه قبل اليوم، ولو كان لا يزال حياً ما ضنَّ به عليهم، وهكذا ردهم بملاطفة...، وحين خفي ذلك عن الناس صار البعض منهم يزعم أنه فر من السجن وأنه لا يزال حياً، وأدعى بعضهم أنه بما له من السحر وعلم الأسماء خرج من دار المخزن بين الناس ولم يظهر للعيون، وقد تمكنت هذه الفكرة من بعض أصهاره حتى أبقى أن يُزوّج بنته بعده انتظاراً لرجوعه إليها، ومن الأوروبيين من أشاعوا أن السلطان رماه في زُبينة أسد فافترسه، وذلك كذب وبهتان»⁽⁶²⁾.

وقد أقرّ الباشا إدريس منو بصحة واقعة إعدامه بومحارة في التاريخ المذكور وبالطريقة المذكورة في جلسة جمعته يوماً بمراكش مع العلامة المختار السوسي حول مائدة الغذاء، مؤكداً أن «ما تقدم هي الحقيقة الناصعة»⁽⁶³⁾. وبإعدامه انقضى أمره وانتهى الحديث عنه وعن ثورته بعدما ملأ المغرب حروباً طيلة سبعة أعوام، كانت سبباً من أسباب خراب البلاد المغربية ونسف استقلالها.

يجدر بنا في ختام هذه الدراسة أن نسجل بعض الملاحظات والاستنتاجات، التي بدت لنا ضرورة لمعرفة العوامل المحركة لثورة بومحارة، وإبراز دور بني مسارة الحاسم في القبض على الثائر وشلّ حركته:

أولاً: نؤكد على أن ثورة بومحارة ما كان لها أن تدوم تلك المدة الطويلة لولا الدعم الذي حظيت به من قبل الاستعمار الفرنسي وأعوانه بالجزائر؛ فهناك مؤشرات تدلّ بما لا يدع مجالاً للشك على وقوف فرنسا بجانب ثورة بومحارة منذ بدايتها بواسطة فرنسيين «أحرار» وشيوخ طرق طوفية جزائريين كانت تحركهم الحكومة الفرنسية بالجزائر من وراء ستار. فوزيره الأول، ووزير خارجيته، ورئيس أركان حربه، ومدير عملياته الحربية، كلهم من الفرنسيين أو من الجزائريين. فكيف يعزل الإنسان إرسال



طبيب إليه من وهران لمعالجته ، وتدخل السفارة الفرنسية لتسريح بعض الجزائريين من أنصاره بعدما وقعوا في قبضة المخزن لو لم يكونوا عملاء للحكومة الفرنسية وبيادق لها؟ وكيف يعمل سكوت بوحمارة عن توغل الفرنسيين في جنوب المغرب من جهة الصحراء ثم في شرقه من ناحية وجدة وعدم تعرضه على وجودهم في المنطقة الأخيرة التي كان يعتبرها من تراب إمارته بزعمه؟ إنه لا يسعنا أمام هذه المؤشرات الواضحة سوى أن نُقرَّ مع ابن منصور رحمه الله بكون «بوحمارة كان صنّعة فرنسية بصفة غير مباشرة في الأول، وصنّعة فرنسية بصفة مباشرة في الأخير، ففرنسا كانت تُعيّنه وتُعين عليه ، ولا يوجد في ذلك أي تناقض في منطق الاستعمار، ما دام غرضه الأوكد هو ضرب المغاربة بعضهم ببعض لإنهالك قواهم جميعاً حتى يتم الاستيلاء على بلادهم بسهولة»⁽⁶⁴⁾.

ثانياً: إن الأوضاع المزرية السائدة في ذلك الوقت، والعقليات التي كانت تدبّر بها الأمور، والشخصيات الفاسدة التي كانت تُمسك بأزمة الحكم من وزراء وعمال وقواد، تتحمل المسؤولية في توسع رقعة الثورة وامتداد أمدّها، ولم يكن السلطان مولاي عبد العزيز بقادر وحده على إصلاح الفساد وتقويم الاعوجاج، فقد كان الحكام يعيشون في واد والشعب يعيش في واد، كانت ملاذهم وملاهيهم ونهبهم للأموال وهتكهم للأعراض وتباهيهم بخلطة الأجانب ثم خياناتهم السافرة أكبر مُنقَر منهم، وباعت على الشك فيهم، والرغبة في الخلاص منهم. هناك نماذج كثيرة من الخيانات والاستخفاف بالأمانات والتهاون في المسؤوليات، يكفي أن نشير إلى بعضها على سبيل المثال، مثل فرار وزير الحرب المهدي المنبهي واحتماؤه بالإنجليز بعدما سرق مالية الجيش، واستئثار القواد والضباط برواتب الجنود ومؤنّتهم وتعريضهم بذلك للجوع والمرض⁽⁶⁵⁾. ثم إنه على الرغم من استئثار السلطان مولاي عبد الحفيظ بمزبة القضاء على ثورة بوحمارة فإن مسؤولية مخزنه لا تقل عن مسؤولية المخزن العزيمي في استئثار الفساد بهياكل الدولة. ولا أدل على ذلك من الحوار الذي دار بين الصدر الأعظم المدني الـگلاوي وبين القائد الناجم بعدما سلم هذا الأخير بوحمارة إلى السلطان بقصره، حيث يقول الناجم في هذا الباب: «ثم خرجنا فأخذ الوزير المدني الـگلاوي بيدي، فصرنا كلما خطونا خطوة يلتفت إليّ ويقول لي: يا ناجم، تَعَدَّيتَ. كرّر ذلك مراراً. فأقول له: أنا تائبٌ إلى الله يا سيدي. ثم قلت له: بأي شيء تَعَدَّيتُ يا سيدي؟ فقال: حين قبضتَ هذا الرجل وأتيتَ به. فأجبتهُ بأنّي أظنّ أنّي قمتُ بواجبٍ عظيمٍ أنفعُ به حكومتي وبلادي، فإنه تسبب في خلاء المغرب. فقال: لا، إنك لم تفعل حسناً، فهذا الرجل الذي نحن حوله -يعني السلطان- غدار، وكان بوَدِّنا أن لا نزال نراوغه بمحاربة هذا الإنسان الذي أتيتَ به



اليوم، ففضيت علينا بما كُنَّا نتخذُه دائماً جَنَّةً نتسَّتر وراءها. فقلت له: أيا كان، فإني أتوب إلى الله. ففارقته وقد اسودَّ في عيني، وأدركتُ ما يضره للمملكة كلها، وفي الليل أرسل إليَّ فرساً عتيقاً كأنه لاطفني لأستر ما قال»⁽⁶⁶⁾.

ثالثاً: إن مَنْ كان لهم قصب السبق في إلقاء القبض على الثائر بوحمارة بضريح مولاي عمران الشريف هم رجال بني مسارة، تؤكد على ذلك الروايات الشفهية والوثائق التاريخية، بل حتى رواية القائد الناجم التي ينسب فيها واقعة القبض المذكورة لنفسه يستفاد منها عكس ما يزعمه، حيث يؤكد منطوق كلامه على استلامه الثائر الأسير بالضريح المذكور من يد المساريين بخلاف ما رده في مواضع أخرى من روايته من كونه صاحب الفضل في الانقضاء عليه. يقول الناجم حاكياً عن مشهد دخوله مشور فاس بالأسير بوحمارة وإناخته الجمل أمام السلطان مولاي عبد الحفيظ: «فمشيتُ بالجمل حتى دخلت دار المخزن حيث المشور، فوجدتُ السلطان جالساً وحوله الوزراء، فأبركتُ الجمل بين يدي السلطان، ثم تقدمت فبندقتُ على العادة، وسلَّمتُ إلى يده الأمانة كما توصَّلتُ بها من مولاي عمران»⁽⁶⁷⁾.

رابعاً: أثبت التاريخ أن الإرادة الصادقة والعزيمة الثابتة في الدفاع عن الوطن ضد الحركات الهدامة والدعاوى الباطلة والغزاة والدخلاء لا يقهرها قاهر مهما عظمت قوته، وامتدت سلطته ودعوته. وفي هذا المعنى نستحضر ذلك الحوار الذي دار بين القائد محمد القريضي المساري، أحد رجال قبيلة بني مسارة الأبطال، وبين الثائر بوحمارة حين استدار به قواد الجيش تلك الليلة التي أعقبت القبض عليه وباتوا خلالها يتسامرون، حيث استخف بوحمارة بقبيلة بني مسارة وبقبائل جباله عموماً قائلاً: «تركتُ بلاد السَّيب وجئتُ إلى بلاد الرَّيب. يعني ترك محل الخيل -والسَّيب شَعْر الخيل عند الناس- كبلاد أنْكَاد وأمثالها حيث الفرسان الشجعان، وأتيتُ إلى بلاد الجُبْن التي لا يعرف أهلها إلا أن يُبَسُّوا الرَّيب، ولا معرفة لهم بالحروب والإقدام، فهلكتُ عندهم». فرد عليه القائد محمد المساري معتزلاً بانتمائه إلى بلاد جباله قائلاً له: «إنك معتقل الآن في بلاد الرَّيب التي احتقرتها». فاغتاظ الثائر من رد القائد المساري وسأله: «من أين أنت يا هذا؟» فأجابه المساري: «إنني من جباله هذه». فالتفت إليه بوحمارة وقال له مستهزئاً به وبجميع سكان جباله: «إنكم يا بني جباله لا تعجبوني إلا حين تتناولون الـكَوْزة، يعني وعاء التنفيحة، فتستنشقون مما فيها، وأما الرجولة فأين أنتم منها؟ فمثلك يا ابن كذا وكذا -يُسَبُّه سَبّاً فاحشاً- لا يتكلم أمام سادته»⁽⁶⁸⁾. إنه كلام صادر عن ثائر مهزوم، مُحبط، فاقِد



للأمل في الحياة، ساقته الأقدار إلى «بلاد الزبيب» التي أساء تقدير وزنها وقوتها، فلقنه أبناؤها دروساً خالدة في الشجاعة والإقدام.

خامساً: وقع من المؤرخ النسابة عبد الرحمان ابن زيدان رحمه الله سبق قلم في تعيين اسم المدشر الذي تم القبض فيه على بوحمارة، بحيث ذكر أن الثائر «كان الظفر به بمدشر أولاد گنون من قبيلة بني مستارة في زريبة السيد عمران»⁽⁶⁹⁾. والصواب أن الظفر بالثائر كان بضريح مولاي عمران الشريف بمدشر الزاوية ببني مسارة العليا كما تقدم ذكره غير ما مرة في هذه الدراسة، أما أولاد گنون فهي فرقة تضم ستة عشر مدشراً، وتوجد ببني مسارة السفلى. كما وقع سبق قلم من المؤرخ ابن الأعرج السليمانى حينما ذكر بأن قبيلة بني مسارة قبضت على الثائر «بمساعدة بعض أشرف وازان»⁽⁷⁰⁾. والصواب أن أشرف وزان لم تكن لهم صلة بهذا الحدث لا من قريب ولا من بعيد، وإنما الأشرف المعنيون بقصده هم الأشرف العمرانيون ولاة ضريح جدهم مولاي عمران الشريف المذكور. وبهذه الهئات والسقطات وغيرها، فإن تاريخ البادية بكل فصوله لا يمكن أن يُكتب من المدن وحدها مهما كانت المبررات والدوافع، لأن الكتابة عن البادية في رأيي ينبغي أن تكون من البادية، وعلى الكتاب أن يعلموا أن مَن يكتب عن البادية من المدينة يبعد أحياناً عن الحقيقة التاريخية والأمانة العلمية.

الإحالات:

(1) قبيلة بني مستارة أو بني مسارة، كما هي معروفة بهذا الاسم حالياً، قبيلة جبلية صنهاجية تقع شرق مدينة وزان، تجاورها قبائل بني زروال، بني أحمد، بني مزگالدة، غزاوة، سطة، رهونة، والمنتسب إليها يدعى المستاري أو المساري، والنسبة الأخيرة هي الغالبة الذكر اليوم. تنقسم القبيلة من الناحية الإدارية إلى قسمين: قسم علوي وآخر سفلي؛ القسم العلوي منها قاعدته زومي، وهي جماعة قروية كانت تابعة فيما سبق لإقليم شفشاون، وأصبحت اليوم تابعة لإقليم وزان منذ إحداثه سنة 2009، والقسم السفلي منها قاعدته سيدي رضوان وهي أيضاً جماعة قروية كانت تابعة في السابق لإقليم سيدي قاسم، وأضحت اليوم تابعة لإقليم وزان منذ إحداثه في التاريخ المذكور. انظر: عبد السلام البكاري، مادة «بني مستارة»، في معلمة المغرب، ج 5، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1992، ص ص 1563-1565.

(2) عن ثورة بوحمارة راجع: عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008، ج 1، ص ص 465-480؛ محمد المختار السوسي، المعسول، ج 20، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1961، ص ص 36-76؛ محمد ابن الأعرج السليمانى، اللسان العرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمانة، الرباط، الطبعة الأولى، 1971، ص ص 144-151؛ عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي، ج 1، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1978، ص ص 303-397؛ إبراهيم كريدية، ثورة بوحمارة



- 1902-1909 ، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986 ؛ عكاشة برحاب، مادة «بوحمارة، الجيلالي»، في معلمة المغرب، ج5، نشر مطابع سلا، ص ص.1654-1656، وغير ذلك.
- (3) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص.312.
- (4) إبراهيم كريدية، ثورة بوحمارة...، م.س، ص.42.
- (5) عبد السلام البكاري، الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة...، م.س، ص.233.
- (6) الحديث أخرجه بزيادة ونقصان واختلاف في بعض ألفاظه الإمام مسلم بن الحجاج في الصحيح، دار طبية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 2006، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم 1848، ص.897، وحديث رقم 1849، 1850، ص.898، وأخرجه الإمام بمثل ما ذكر محمد بن إسماعيل البخاري في الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (سترون بعدي أموراً تُثْكَرونها)، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، الطبعة الثانية، 2006، رقم الحديث، 7053، 7054، ص.972، ثم حديث رقم 7143، ص.982.
- (7) عبد السلام البكاري، الإشارة والبشارة...، م.س، ص ص.50-52، ص ص.132-133.
- (8) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص.313.
- (9) إبراهيم كريدية، ثورة بوحمارة...، م.س، ص.43.
- (10) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص ص.314-315.
- (11) المرجع نفسه، ج1، ص.315.
- (12) إبراهيم كريدية، ثورة بوحمارة...، م.س، ص.44.
- (13) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج20، ص.41.
- (14) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج1، ص.471.
- (15) المرجع نفسه، ج1، ص.472.
- (16) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص.322.
- (17) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج20، ص.41؛ إبراهيم كريدية، ثورة بوحمارة...، م.س، ص.44.
- (18) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج1، ص.472.
- (19) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص.323.
- (20) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج1، ص.472.
- (21) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص ص.319-321.
- (22) محمد الصغير الخلوئي، بوحمارة من الجهاد إلى التآمر، المغرب الشرقي والريف من 1900 إلى 1909 دراسة ووثائق، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1993، ص.53.
- (23) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج1، ص ص.336-336 وكذلك ص.2.
- (24) المرجع نفسه، ج1، ص ص.336-341.



- (25) المرجع نفسه، ج 1، ص ص.360-363؛ عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج 1، ص.477.
- (26) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج 1، ص.371؛ عكاشة برحاب، مادة «بومارة، الجيلالي»، في معلمة المغرب، ج 5، ص.1655.
- (27) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج 1، ص ص.373-374.
- (28) سورة المائدة، الآية 53.
- (29) عبد السلام البكاري، الإشارة والبشارة...، م.س، ص.50، 133.
- (30) عكاشة برحاب، مادة «بومارة، الجيلالي»، في معلمة المغرب، ج 5، ص.1655.
- (31) محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، حرب الريف، منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني، فاس، 1982، ج 2، ص.9.
- (32) المرجع نفسه، ج 2، ص ص.21-22.
- (33) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج 1، ص.381.
- (34) المرجع نفسه، ج 1، ص ص.381-382.
- (35) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج 20، ص.66.
- (36) المصدر نفسه، ج 20، ص ص.66-67.
- (37) المصدر نفسه، ج 20، ص.67.
- (38) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج 20، ص.67.
- (39) عبد السلام البكاري، الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة...، م.س، ص.232؛ الإشارة والبشارة...، م.س، ص.276.
- (40) أحد رجال قبيلة بني مسارة المعمرين، عاين لحظة القبض على الثائر بومارة بحرم الزاوية العمرانية في التاريخ المذكور أعلاه. ولد في حدود سنة 1309هـ/1892م بمدشر اظهر منقاش، فرقة الشرفاء العمرانيين التابعة للجماعة القروية قلعة بوقرة، بإقليم وزان. اجتمعت به بداره الكائنة بالمدشر المذكور يوم الخميس 26 رمضان 1419هـ/14 يناير 1999م، فأفادني بمعطيات هامة عن استحرام الثائر بومارة بالحرم المذكور ومجريات أحداث القبض عليه. توفي يوم 11 جمادى الثانية 1423هـ/20 غشت 2002م، عن سن عالية ناهزت 110 سنة.
- (41) من شهادة الراوي المُعمر السيد محمد استيتو بن علي المنصوري المنقاشي المساري على ثورة بومارة أثناء اجتماعي به بداره الكائنة بمدشر اظهر منقاش، بتاريخ 26 رمضان 1419هـ/14 يناير 1999م.
- (42) الراوي المُعمر السيد محمد استيتو بن علي المنصوري المنقاشي المساري.
- (43) الراوي المُعمر نفسه.
- (44) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج 1، ص.389؛ عبد السلام البكاري، الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة...، ص.232؛ عكاشة برحاب، مادة «بومارة، الجيلالي»، في معلمة المغرب، ج 5، نشر مطابع سلا، ص.1656.
- (45) عبد السلام البكاري، الإشارة والبشارة...، م.س، ص.116.
- (46) المرجع نفسه، ص.131.



- (47) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- (48) Centre des Archives Diplomatiques de Nantes, Direction des affaires indigènes, Article 1MA285, Maroc Protectorat, dossier: Notice sur les Beni Mestara, «Notice sur la tribu Beni Messara (ou Mestara)», par officier interprète Zemerli, 1913, p.10, 11.
- (49) محمد ابن الأعرج السليمانى ، اللسان العرب ...، م.س، ص ص.150-151.
- (50) الراوي المُعَرِّ السَّيد محمد استيتو بن علي المنصوري المناقشي الساري.
- (51) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي...، م.س، ج 1، ص.382.
- (52) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج 20، ص.67.
- (53) المصدر نفسه، ج 20، ص ص.67-68.
- (54) المصدر نفسه، ج 20، ص.68.
- (55) يقصد بـ«طُلَيْة السلطان»: أعداء السلطان. فـ«الطُلَيْة» أو «الطُلْبَان» في اللسان الدارج الجبلي يقصد بهم الأعداء أو «العَدِيَّان» بالتعبير العامي.
- (56) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج 20، ص ص.69-70.
- (57) المصدر نفسه، ج 20، ص ص.70-73.
- (58) المصدر نفسه، ج 20، ص.73.
- (59) المصدر نفسه، ج 20، ص.73-74.
- (60) الدُّكَّانة كلمة عامية متداولة بين أهل المناطق الشمالية بالمغرب. وهي موضع مرتفع من الأرض يبنى بجانب أبواب المنازل، لأجل الجلوس فوقه للراحة أو لتناول أطراف الحديث والنظر إلى الفضاء الطبيعي، بدل الجلوس المل داخل الدار. وقد اعتاد الناس بالمناطق المذكورة على بناء هذه المواضع تحت الأشجار المحاذية لمنازلهم، قصد الجلوس فوقها للراحة والحديث والاستمتاع بظلالها الوارفة، وخصوصاً أيام فصل الصيف، حيث يكثر الجلوس فوق «دُكَّانات» الأشجار للاحتماء من حرارة الشمس المحرقة.
- (61) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج 20، ص.74.
- (62) المصدر نفسه، ج 20، ص ص.74-75.
- (63) محمد المختار السوسي، حول مائدة الغذاء، مطبعة الساحل، الرباط، (د.ت)، ص.63.
- (64) عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي، م.س، ج 1، ص.394.
- (65) المرجع نفسه، ج 1، ص ص.394-395.
- (66) محمد المختار السوسي، المعسول، م.س، ج 20، ص.74.
- (67) المصدر نفسه، ج 20، ص.73.
- (68) المصدر نفسه، ج 20، ص.71.
- (69) عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، م.س، ج 1، ص.479.
- (70) محمد ابن الأعرج السليمانى ، اللسان العرب ...، م.س، ص.151.